مظاهر النزعة الشعبية
في شعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي

د. جميل بدوي حمد
كلية الآداب/ جامعة واسط

المقدمة:

النزعة تعني الميل إلى الشيء، أو الرغبة فيه .أمّا ظاهرة النزعة الشعبية عند الشعراء فهي التوجه إلى استخدام الأسلوب المتسم بالبساطة والوضوح بلغة سليمة بعيدة عن اللحن والعامية المبتذلة، ويكون الشاعر قد اختار طريقا" وسطا" بين اللغة المعجمية واللغة العامية ؛لإيصال شعره إلى عامة المتلقين، وقد حظي هذا الأسلوب بقبول واسع من الناس؛ لأنه قريب من أفهامهم، ووقف الدارسون عند هذه التجربة لشعراء النزعة الشعبية باحثين عن أسبابها ومظاهرها ،فلا يمكن للغة الأدبية أن تظل بمعزل عن تطورات الحياة، فلغتنا العربية حية تواكب عملية التطور الإنساني في شتى ميادين الحياة، ومادام الشعر مرآة عاكسة للتحولات الاجتماعية ؛كان لزامًا على الشعراء أن يستوعبوا هذه التبدلات على الأصعدة شتى مواكبين حركة الحياة الاجتماعية، وما يطرأ عليها من تغيرات .

ويبدو أنَّ النزعة الشعبية في شعرنا العربي لم تكن وقفًا على الشعراء العباسيين، إنما حاول عدد من شعراء عصر صدر الإسلام ،والعصر الأموي، أن يتوخوا المفردات السهلة، والألفاظ الموحية، والمعاني الغريبة، والأوزان الخفيفة ؛ مستجيبين لما حصل من التطورات في المجتمع العربي، فقد طوع شعراء صدر الإسلام شعرهم ؛لتسجيل الكثير من الفتوحات الإسلامية بأسلوب قريب من أذهان عامة الناس متأثرين بلغة القران وأساليبه التي رفدت أدبنا العربي بروح جديدة ، فقد لانت أساليبهم، وعذبت ألفاظهم ،ورقت طباعهم، واقتبسوا منه في شعرهم ونثرهم [١].

ومضى الشعر يواكب التطورات الاجتماعية والسياسية في العصر الأموي، إذ ظهر لنا شعراء الأحزاب السياسية، والفرق والمذاهب الدينية؛كل هذا أملى على الشعراء أن يسلكوا سبيلاً في شعرهم يقربهم من عامة المجتمع، ولاسيما شعراء الحجاز في مكة والمدينة .

وقد يجد الباحث في غرض الغزل وضوح النزعة كما هو الحال عند العرجي، والاحوص، وعمر بن أبي ربيعة الذي أحرز قصب السبق في مضمار التجديد في غرض الغزل الحسي الذي جعله نمطا شعبيًا عامًا يقبل على سماعه القاصي والداني؛ حتى أصبحت قصائد الغزل أغاني ترددها ألسنة الناس؛وهذا ما جعلها ((شعرًا شعبيًا عاما تتردد مقطوعاته في جوانب العالم العربي، إذ لم يكن للعرب حينئذ صحف يقرؤونها سوى الشعر، فهو صحفهم التي يقرؤون فيها حوادثهم، وأخبارهم، ويرون فيها عواطفهم وشعورهم))[٢].

وكان عمر بن أبي ربيعة مدركا هذه الحقيقة؛فهب ملبيًا ما يرغب فيه المتلقون من شعر جديد يداعب مشاعرهم، وينفس عن مكنونات أنفسهم وينطق بمكتوم عواطفهم، وهذا ما يتضح لنا في اثناء هذا البحث.

المظهر الأول- شعبية الغزل:

تتأتى شعبية غزل عمر بن أبي ربيعة من كونه غرضًا يداعب مشاعر عامة الناس، وينطق عن عواطفهم، وأحاسيسهم، فالغزل تصبو إليه النفوس، وترهف له الأسماع؛ ولذا فهو يعد من أكثر الأغراض الشعرية شيوعا في مكة والمدينة؛بسبب الرخاء والترف الذي تمتع به المجتمع المدني والمكي؛لأسباب اقتصادية وسياسية معروفة، ولعل اهم سبب هو السياسة حيث حوّل الأمويون المدينتين المقدستين إلى اماكن للهو والغناء والرقص والمجون بكل ما تعنيه هذه الكلمات من أجل طمس معالم المدينتين وتشجيع الشباب للأنغماس بالملذات.وقد استعمل الامويون كل دهائهم في هذا الاتجاه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنَّ غزل ابن أبي ربيعة انماز بعذوبته، وغنائيته المعروفة فضلاً عن كونه دخل إلى هواجس المرأة ومشاعرها التي كانت مكبوتة؛بفعل التقاليد الاجتماعية الصارمة، وبهذا استطاع شاعرنا أن يكسر حواجز الخوف، فقد تحدث بلسان المرأة المتيمة كاشفا عن مكنونات نفسها بأسلوب حضري بعيد عن أساليب شعراء البوادي والبلدان، فغزله((صيغ من مادة معاصرة، سواء من حيث النفسية التي تتغلغل فيه، أم من حيث المرأة التي يبرز عواطفها ويحلل خواطرها، ومن حيث الأوزان التي ينظم فيها، وأيضا من حيث اللغة، فهي لغة قريبة، لغة مألوفة للناس، ليس فيها هذا الإغراب الذي نجده عند القدماء، أو الذي نجده عند شعراء العراق مثل الفرزدق، وإنما فيه الخفة والقرب، وما يلائم الأذواق المتحضرة الجديدة))[٣]؛الأمر الذي أضفى عليه طابع الشعبية التي ميزته عن غزل معاصريه من الشعراء،((وقد دفع عمر بكلتا يديه الشعر العربي هذه الدفعة القوية إلى آفاق شعبية جديدة ما زالت تنمو من بعده في صور مختلفة مارة من عصر إلى عصر، حتى انتهت إلى الموشحات والأزجال المعروفة في الأندلس)[٤]؛فلشاعرنا قدم راسخة في ميدان التجديد في شعر الغزل لهذا العصر،فقد رأينا في غزل عمر بن أبي ربيعة ما لم نَرَهُ في غيره من جرأة في تصوير موقف اللقاء مع معشوقاته اللواتي غامر من اجل الوصول إليهن، وإماطة ما يستر أجسادهن بأسلوب مفعم بغنائية أخّاذة، وكذلك ما دأب عليه في غزله هذا من أسلوب قصصي يرسم مشهدًا متكاملاً لذلك اللقاء، وهذا ما نراه في أكثر مغامراته العاطفية على نحو قوله:

هَـاجَ فُؤَادِي مَوْقِفُ ذَكَّرَنِي مَا أعْـرِفُ

مَمْشَـايَ ذَاتَ لَيـْلَةٍ ، وَالشَّـوْقُ مِمَّا يَشْعَفُ

إذَا ثَـلاَثٌ كَالدُّمى ، وَكَـاعِبٌ وَمُسْـلِفُ

وَبَيْنَهُـنَّ صُـورَةٌ كَالشَّمْـسِ حِينَ تُسْدِفُ

خَـوْدٌ وَقِيرٌ نِـصْفُهَا، وَنِـصْفُهَا مُهَفْهَـفُ

قُلْـتُ لَهَا: مَنْ أَنـتُمُ؟ لَعَـلَّ دَارًا تُـسْعِفُ

فَابْتَسَمَتْ عَنْ وَاضِحٍ غَـرَّ الثَّنَايَا يَـنْطِـفُ

وَأَوْمَضَتْ عَنْ طَرْفِهَا يَاحُسْنَهَا إذْ تَـطّـرِفُ

وَأَرْسَـلَتْ فَجَاءَ نِي بَنَائُـــهَا الْمُـطَرَّفُ
أنْ بِـتْ لَدَيْنَا لَيـْلَةً نَحْيَــا بِـهَا وَنَلْطُفُ
بَاتَـتْ وَلِي مِنْ بَذْلِهَا حَمْشُ اللِّثَـاثِ أعْجَفُ
فَبِـــتُّ لَيْلِي كَـلَّهُ تَـرْشِفُنِي وَأَرْشِـفُ
إخَـالُ ثَـلْجًا طَعْمَـهُ قَدْ خالَطَتْهُ قَرْقَـفُ(٥)

وقد يعجب المتلقي، فيقول: أنَّ هذه الجرأة نجدها عند امرئ القيس، والمنخل اليشكري، والنابغة الذبياني، وهذا صحيح، إلاّ أنَّ أولئك كانوا في مجتمع لا تحكمه تعاليم الإسلام، أمّا ما جعلنا ننعت غزل ابن ابي ربيعة بالجرأة كونه في مجتمع إسلامي يحظر على الشعراء الغزل الحسي.وكذلك نجد جرأة الشاعر حين يصف صويحباته في موسم الحج والعمرة، فهو يقول:

ظَبْيَةٍ مِنْ وَحْشِ ذِي بَـقَرٍ شَأنُـــهَا الْغِيطَانُ وَالْغُدُرُ
رَخْصَةٍ حَـوْرَاءَ نَاعِمَـةٍ طَفْلَةٍ كَأنَّـهَا قَمَـــرُ
لَوْ سَقَى الأمْوَاتُ رِيقَتَـهَا بَعْدَ كَأسِ المَوْتِ لانْتَشَرُوا
وَيَكَادُ الْحِجْلُ مِنْ غَصَصٍ حِيـنَ تَسْتَأتِيهِ يَنْكَسِـرُ
وَيَكَادُ الْعَجْزُ إنْ نَـهَضَتْ بَـعْدَ طُـولِ الْبَهْرِ يَنْبَتِـرُ
قَـدِ إذْ خُبِّرْتُ أنَّــهُمُ قَدَّمُـوا الأثْقَـالَ فَابْتَكَرُوا
أخِيَــامُ الْبِئْرِ مَنْـزِلُهُمْ أمْ هُـمُ بالْعُمْرَةِ انْتَمَرُوا(٦)

ومن جرأته في غزله أنَّه يصرح بالإقبال على طلب اللهو والملذات، فاسمعه يقول:

قَمَـرٌ بَـدْرٌ تَـبَدَّى بَاهِرًا يُعْشِي النَّجومَـا
قُـلْتُ:أهْلاً بِـكُمُ مِـنْ زُوَّرٍ زُرْنَ كَرِيَــما
فَــأذَاقَتْنِي لَذِيـذًا خِلْتُـهُ راحًـا خَـِتيمَـا
شَـابَهُ شَهْـدٌ وَثَـلْجٌ نَقَعَـا قَلْبًـا كَلِيـمَا
ثُمَّ أبْدَتْ إذْ سَلَبتُ الــ ـمِرْطَ مُبْيَضًّا هَـضِيمَا
فَلَهَوْنا اللَّيْـلَ حَتَّى هَجَـمَ الصُّبْـحُ هُجُومَا
قُلْتُ: قَـدْ نَادَى الْمُنَادِي وَبَـدَا الصُّـبْحُ فَقُومَا
قُمْنَ يُزْجِـينَ غَـزَالاً فَاتِرَ الطَّـرْفِ رَخِيمَا
وَلَقَـدْ قَضَّيْتُ حاجـا تِـي وَلاَقَيْتُ النَّعِيمَا(٧)

إنَّ هذه الجرأة الممتزجة بعذوبة الألفاظ، وقرب المعاني؛جعلت غزل شاعرنا ذائعًا على ألسنة الناس، ولا سيما الفتيان والفتيات؛مما طبعه بطابع الشعبية، فحين تتفشى هذه الظاهرة بين عامة الناس تكتسب صفة الشعبية، ولولا هذا الأسلوب المتيسر، وهذه السهولة لما وجد غزل شاعرنا هذه المساحة الواسعة بين المتلقين.

المظهر الثاني- بساطة اللغة:

لم تكن اللغة في أول أمرها متسمة بهذا السمة إنَّما كانت ألفاظا يعبر بها عن أشياء، وأحوال معينة، وكلما اتسمت الحياة تطورت اللغة؛ لتستوعب كل ما هو جديد؛ فتعبر عنه؛ وعلى هذا فانَّ اللغة تكون كالكائن الحي تنمو وتتكامل مع مرور الزمن؛لمسايرة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية، فاللغة في أول أمرها تنطق بما وضعت له، وبهذا نجد أنَّ اللغة شملت أصعدة متعددة، فهناك لغة التخاطب اليومية واللغة الرسمية، أمَّا لغة الأدب فهي انتقاله باللغة من وضعها الأصلي إلى وظيفة تعبيرية يتلاعب بها الأديب بحسب ما يراه مناسبا، وهذه الانتقالة تعد مرحلة تعبيرية؛لخلق وظائف جديدة تؤديها هذه اللغة؛لمواكبة تطورات الحياة التي يعنى بها الأدباء؛ للارتقاء بالواقع المعيش إلى واقع يراه الأديب أفضل وأكثر صلاحية من ذلك الواقع،وبهذا تكون اللغة اداة تعبيرية لدى الأديب عن حياة الإنسان، ولا يمكن للغة الأدب أن تسير على وتيرة واحدة فلكل مرحلة من تاريخ البشرية لغته وأساليبه المعبرة عن تطورات هذه الحقبة، أو تلك؛ومن هنا نجد أنَّ من أهم سمات لغة الأدب هو التغيير الدائم، والتحول المستمر، والتوسع الذي يستوعب متطلبات كل حقبة من حقب التاريخ، وإذا رجعنا إلى أدبنا العربي بشعره ونثره نجد هذا التغيير جليا أمامنا فلغة الأدب في عصر ما قبل الإسلام واضحة بسيطة، ليس فيها تكلف، ولا بعد، ولا إغراق في الخيال بالنسبة لهم[٨].وهي تختلف عن لغة الأدب في عصر صدر الإسلام، وهكذا دواليك تكون اللغة في حركة دائمة بحسب الأحوال الاجتماعية في كل عصر من العصور الاجتماعية، ولا نعني بهذا أنَّ لغة عصر صدر الإسلام، او العصر الأموي، فالعباسي منقطعة تمامًا عن لغة أدب ما قبل الإسلام إلاّ أنَّ هذا التطور يكون هادئًا لا ينفصم عن سابقه، فنحن ندركه باستخدام ألفاظ ومعانٍ جديدة لم نألفها من قبلُ، فالشعر هو استخدام خاص باللغة[٩] التي تعدُّ تعبيرا عن الاشياء المحيطة بالإنسان فهي وعاء لما يحيط به من الأفكار والأشياء. أمَّا الإبداع الشعري فهو((لغة وظيفتها الإحالة على المحتوى الذي يعد مادة))[١٠]؛لمنح الماديات والمعنويات صفاتٍ تجعلها ماثلة في ذهن المتلقي، ومعنى هذا أنَّ الشاعر يكون مراعيًا بفنه حدود إدراك المتلقي ورغباته بالتعبير عن واقعه المحسوس؛ وهذا ما جعل الشعراء يبحثون دائما عن الفن الذي يواكب حركة التطور الاجتماعي في ميادينه، وما دام الغزل أكثر ملامسة لشغاف القلوب، وتأثر العواطف؛ فإننا نرى عمر بن أبي ربيعة قد نحا منحى في غزله يلائم أذواق مجتمعه المترف باتخاذه لغة سهلة للتعبير عن مكنونات الجنسين، وما تعتريهما من تباريح الهوى، وخلجات العواطف المكتومة في طيّات مشاعرهم حتى أظهرها الى حيز الواقع بلغة سهلة تتسم بالوضوح والحسية المباشرة متجنبا أساليب التوعر، أو الإيغال في عوالم الخيال؛فجاء غزله قريب المعاني، واضح الألفاظ، سهل الأسلوب، وهذا ما وسمه بالشعبية، ومن يقرأ ديوان عمر ابن أبي ربيعة يجد انّه قدم للمجتمع الحجازي شعرا تتقبله أذواق الناس وتدركه افهامهم دون أي عناءٍ، فهو حين يقدم لك صورة من مغامراته، أو غزلياته تدرك لأول مرة ما يرمي إليه من معان وصور يغلب عليها الطابع الحسي؛ لأنَّها مستقاة من بيئة الشاعر نفسه، فهو حين يشبه صاحبته لا يأتي بالمشبه إلاّ من بيئته، فهو يشبهها بالشمس والدرة والقمر، وهذه تشبيهات شائعة لم يكن عمر منفردا بها !

كأنهَا الشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ أسْعُدِها أَوْ دُرَّة شُوّفَتْ لِلْبَيْعِ، أَوْ قَمَرُ

تَقُـولُ إذْ أيْقَنَتْ أنّي مُفَارِقُهَا: يَالَيْتَنِي مِـتُّ قَبْلَ الْيَوْمِ ياعُمَرُ(١١)

لا أظن أنَّ هذا النص الشعري يكلف المتلقي عناءً، فهو بلغة بسيطة، ومفردات مألوفة، وهنا نجد وضوح النزعة الشعبية، ولا تقتصر هذه السهولة على نص بعينه، وإنَّما تشمل أكثر قصائد الديوان، ومقطعاته، فمعاني شاعرنا قريبة من الذهن، وألفاظه متداولة على السنة الناس حتى يكاد يقترب بها من العامية، وإليك ما يوضح ذلك في شعره.

بنَفْسِيَ مَنْ شَغَّنِي حُبُّــهُ ومَنْ حُبُّهُ بَاطِنٌ ظَاهِرُ

ومَنْ لَسْتُ أصْبِرُ عَنْ ذِكْرِهِ ولاَ هُوَ عَنْ ذِكْرنا صَابِرُ

ومَنْ إنْ ذُكِرْنَا جَرَى دَمْعُهُ ودَمْعِي لِذِكْرِي لَهُ مائِـرُ

وَمَنْ أَعْرِفُ الودَّ فِي وَجْهِهِ وَيَعْرِفُ وُدَّي لَهُ النَّاظِرُ(١٢)

فالمعاني في هذا النص تفصح عن شعبيتها، فهي قريبة من إدراك المتلقين على مختلف مستوياتهم، وهذه المعاني تَخيَّرَ لها الشاعر ألفاظا سهلة واضحة، فشاعرنا لم يعمد الى التكلف بالغوص عن معانيه وألفاظه، فهو يلتقطها بيسرٍ وسهولةٍ، وهاك هذه الأبيات التي تدلك على سهولة المعاني وبساطة الألفاظ.

يَطُولُ اليَوْمُ فِيهِ لاَ أرَاكُـمْ ويَوْمِي عِنْد رؤيَتِكُمْ قَصِيرُ

وَقَدْ أقْرَحْتِ بالهِجْرَانِ قَلْبِي وَهَجْرُكِ،فَاعْلَمِي،أمْرٌ كَبِيرُ

فَدَيْتُكِ أطْلِقِي حَبْلِي وَجُودِي فَإنَّ اللهَ ذُو عَفْوٍ غَفُورُ(١٣)

فشاعرنا صاغ معانيه بألفاظ معروفة عند كل سامع، ولم يكلف نفسه بشي غير مقابلته بين طول اليوم وقصره؛ليقدم لنا معنى غاية في السهولة ألا وهو صعوبة هجر الحبيبة ،وإليك معنى آخر من معاني التوله بالنساء في قوله.

إنَّ حُبِّي آلـ لَيْلَى قَاتِـلِي ظَهَرَ الْحُبُّ بِجِسْمِي وَبَطَنْ

لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أحْبَبْتُهُ غَيْرَ أنْ أقْتُلَ نَفْسِي أوْ أجَنْ(١٤)

يتضح مما تقدم أنَّ ديوان شاعرنا يتسم بشعبية المعاني والألفاظ لا على سبيل جهل الشاعر بلغة العرب، إنَّما أراد بهذا أن يجعل لغة غزله ذائعة بين الناس؛ ليتفرد بهذا الأسلوب من بين معاصريه، ويجعل شعره أكثر ملائمة للغناء متصرفا بلغة غزله؛ لتحقيق ما يهدف اليه من التجديد،((فاللغة عنصر مهم من عناصر الشعر، وهي مادة الشعر، وجوهره، فلا بد للشاعر أن يسلك فيها مسلكا خاصا للتعبير عن معانيه بطريقة تختلف عنها في فنون القول الأخرى))(١٥)،وهذا ما فعله عمر بن أبي ربيعة حين سلك بلغة شعره مسلك السهولة واليسر.

المظهر الثالث– السردية:

تعد السردية مظهرًا من مظاهر النزعة الشعبية في شعر عمر بن أبي ربيعة، فهي تضفي على القصيدة يسرًا ووضوحًا فحين نطالع ديوان الشاعر نجد أنَّ أغلب القصائد والمقطعات

جاءت بأسلوب سردي ييسر على الملتقي إدراك المعاني والألفاظ والصور في النص الشعري، فقد عمد الشاعر إلى هذا الأسلوب؛ ليتمكن من إيصال افكاره إلى المتلقي دون عناء، وتتجلى السردية في أساليب متعددة اعتمدها الشاعر في بناء شعره، ومن هذه الأساليب:

١- الحوار والأسلوب القصصي:

الحوار يخفف من صرامة التقنين الشعري، فهو يمنح النص دفقًا عاطفيًا يتناغم مع رقة الغزل، وحيوية في البناء، وسعة في الخيال، ووضوحا في المعاني،((فهو يخلق روحا ثانية في الشعر، ويضفي عليه شيئا من الحيوية والجاذبية، ونجد فيه مشاركة وجدانية طواعية من خلال ما يصل الى أُذن السامع))[١٦]

والحوار عنصر شد للمتلقين، فهو ينتقل بهم من واقعهم إلى واقع الباث المشحون بالتجارب الذاتية، وبفضله تتعدد الأصوات في النص الشعري، وتتضح الصور، فحين يكون هناك تشابها بين تجارب الباث والمتلقين تحصل حالة الانسلاخ من الواقع المعيش الى واقع النص الشعري واجوائه.

فالحوار هو احد عناصر السرد القصصي، الذي يثير فضول المتلقين وشدهم إلى تتبع حوادث القصص الشعري، وقد علمنا أنَّ الحوار وأسلوب السرد القصصي هما من فنون النثر لكن شاعرنا وظفهما في شعره؛ لينحو بهما صوب الشعبية بلغة سهلة، وأسلوب متيسر فمن((أهم ما يطبع غزله هذا الحوار القصصي الذي رأيناه على لسان محبوباته يصفن لجاراتهن، وأخواتهن، وجواريهن حبهن له، وهيامهن به))[١٧] ،كما في قوله:

هَيَّجَ الْقَلْبَ مَغَانٍ وَصِيَرْ دَارِسَاتٌ قَدْ عَلاَهُنَّ الشَّجَرْ

وَرِيَاحُ الصَّيْفِ قَدْ أَزْرَتْ بهَا تَنْسِجُ التَّرْبَ فُنُونًا وَالمَطَرْ

ظَلْتُ فِيهَا ذَاتَ يَوْمٍ وَاقِفًا أَسْأَلُ المُنزِلَ هَلْ فيهِ خَبَرْ

لِلّتي قالتْ لأُتْرَابٍ لَها قُطُفٍ فِيهنَّ أُنْسٌ وَخَفَرْ

إذْ تَمَشَّيْنَ بِجَوٍّ مُونِقٍ نَيَّرِ النَّبْتِ تَغَشَّاهُ الزَّهَرْ

بِدمَاثٍ سَهْلَةٍ زَيَّنها يَوْمُ غَيْمٍ لم يُخَالِطْهُ قَتَرْ

قَدْ خَلَوْنَا فَتَمَنَّيْنَ بِنَا إذْ خَلَوْنَا الْيَوْمَ نُبْدِي مَا نُسِرْ

فَعَرَفْنَ الشَّوْقَ في مُقْلَتِهَا وحَبَابُ الشَّوْقِ يُبْدِيهِ النَّظَرْ

قُلْنَ يَسْتَرْضِينَهَا: مُنْيَتُنَا لَوْ أَتَانَا الْيَوْمَ في سِرَّ عُمَرْ

بَيْنَمَا يَذْكُرْنَنِي أبْصَرْنَنِي دُونَ قَيْدِ الْمَيل يَعْدُوبِي الأغرُّ

قُلْنَ: تَعْرِفْنَ الْفَتَى؟قُلْنَ: نَعَمْ قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرْ؟

ذَا حَبِيبٌ لَمْ يُعَرَّج دُونَنَا سَاقَهُ الْحَيْنُ إلَيْنَا وَالْقَدَرْ

فَأتَانَا حِينَ أَلْقَى بَرْكَهُ جَمَلُ اللّيْلِ عَلَيْهِ وَاسْبَطَرّْ[١٨]

عمد شاعرنا إلى جعل الحوار على ألسنة صويحباته بشأن حبهن له وافتتانهن به؛ لإظهار رجولته وشأنه بينهن، ولاماطة اللثام عن خلجات النساء الأوانس في عصره.

ويعقد الشاعر حوارًا بينه وبين إحدى صويحباته؛ لإظهار التوازن العاطفي بين الرجل والمرأة، والمشاركة الوجدانية في تبادل الحب بين الطرفين كما في قوله:

وَغَضِيضِ الطَّرْفِ مِكْسَالِ الضُّحَى أَحْوَرِ الْمُقْلَةِ كَالرِّيمِ الأَغَنّْ

مَـرَّ بِي في نَـفَرٍ يحْفُفْنَـهُ مِثْلَمَا حَـفَّ النَّصَارَى بـالْوَثَنْ

رَاعَنِى مَنْظَـرُهُ لَمَّـا بَـدَا رُبَّمَا ارْتَاعُ بِالشَّـيْءِ الْحَسنْ

قُلْتُ:مَنْ هذَا؟ فَقَالَتْ: بَعْضُ مَنْ فَتَنَ اللهُ بِكُمْ فِيمَن فَتَـنْ

بَعْضُ مَنْ كَانَ أَسِـيرًا زَمَنًا ثُمَّ أَضْحَى لِهَوَا كُمْ قَدْ مَجَنْ

قُلْتُ: حَقّـًا ذَا ؟ فَقَالَتْ قَوْلَـةً أَوْرَثَتْ في الْقَلْبِ هَمًّا وَشَجَنْ

يَشْـهَـدُ اللهُ عَلَى حُبِّي لَكُـمْ وَدُمُوعِي شَـاهِدٌ لِي وَحَزَنْ

قلْتُ: يَا سَيِّـدَتِي عَذِّبتِنِـي، قَالَتِ: اللّـهُمَّ عَذِّبنِي إذَنْ[١٩]

قد لمسنا مما تقدم أنَّ شاعرنا أرادَ بالحوار والأسلوب القصصي التعبير عن مشاعر المتلقين المكبوتة من رجال ونساء، وابراز ما تكنه صدورهم من لواعج الحب وتباريح الهوى، كما قصد بهذا الأسلوب تيسير فنه الشعري بلغة مطبوعة بطابع الشعبية.

٢- التكرار:

دأب الباحثون على دراسة التكرار ضمن موسيقى النص؛ لأنه يحدث نغمًا متلاحقًا ومتماثلا لكننا سندرسه في موضوع الطابع السردي؛لان فيه السردية واضحة فهو أقرب إلى النثر منه الى الشعر، وهو أحد أوجه حرية النص المنثور أمّا وروده في النص الشعري فله وظائف أخرى كتوكيد الفكرة بالإلحاح على تكرار الجملة، أو المفردة، أو يفيد التفصيل في إطالة الفكرة، وجعلها واضحة جلية للمتلقي؛ لتثبيت المعنى المطلوب((والدلالة عليه مردّدًا، وربما اشتبه على اكثر الناس بالاطناب مرة، وبالتطويل أخرى))[٢٠]، وهو فضلا عن ((وظيفته الخاصة بالتطريب يحدث نوعًا من الموازاة المعنوية ونمطا من المعادلات العاطفية))[٢١]، ونراه عند عمر بن أبي ربيعة مظهرا من مظاهر شعبية النص الشعري فهو إمّا أن يأتي به للتفصيل، لابانة فكرته كما في قوله:

وَمِنْ أَجْلِ ذَاتِ الْخَالِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي أَكَلِّفُهَا سَيْـرَ الْكَـلاَلِ مَـعَ الظَّـلْعِ

وَمِنْ أَجْلِ ذَاتِ الْخَالِ أَحْبَبْتُ مَنْزِلاً تَـحُلُّ بـهِ لاَ ذَا صَدِيـقٍ وَلاَ زَرْعِ

وَمِنْ أَجْلِ ذَاتِ الْخَالِ يَـوْمَ لَقِيتُهَا بِمُنْـدَفَعِ الأَخْبَـابِ سَـابَقَنِي دَمْعِي

وَمِنْ أَجْلِ ذَاتِ الْخَالِ عُدْتُ كَأَنَّنِي مُخَـامِرُ دَاءٍ دَاخِـلٍ وَأَخُو رِبْـعِ

أَلَمْ تَرَ ذَاتِ الْخَـالِ أَنَّ مَقَالَـهَا لَدَى الْبَابِ زَادَ الْقَلْبَ رَدْعًا عَلَى رَدْعِ[٢٢]

نلحظ أنَّ الشاعر كرر عبارة (ومن اجل ذات الخال) اربع مرات؛ لإثبات استمراريته على إخلاصه لمعشوقته، وإظهار نواياه لها.

وقد يعمد الى التفصيل بتكرار فعل الأمر؛ لتعدد المطالب، إذ كرر فعل الأمر(قولا) ست مرات كما في قوله:

أَلِمَّا بِذَاتِ الْخَالِ فَاسْتَطْلِعا لَنَا أَكَالْعَهْدِ بَاقٍ وُدُّها أمْ تَصَرَّمَا؟

وَقَ ُولاَ لَهَا: إنَّ النَّوَى أَجْنَبِيَّةٌ بِنَا وَبِكُمْ ، قَدْ خِفْتُ أنْ تَتَمَّمَا

شَطُونٌ بِأَهْوَاءٍ نَرَى أنَّ قُرْبَنَا وقُربَكُمُ أنْ يَشْهَدَ النَّاسُ مَوْسِمَا

وَقُولاَ لَهَا: لاَتَقْبَلِي قَوْلَ كَاشِحٍ وَقُولِي لَه،إنْ زَلَّ:أنْفُكَ أرغِمَا

وَقُولاَ لَهَا:لَمْ يُسْلِنَا النَّأْيُ عَنْكُمُ وَلاَ قَوْلُ وَاشٍ كَاذِبٍ إنْ تَنَمَّمَا

وَقُولاَ لَهَا: مَافِي الْعِبَادِ كَرِيمَةٌ أعَزَّ عَلَيْنَا مِنْكِ طُرًّا وَأكْرَمَا

وَقُولاَ لَهَا : لا تَسْمَعِنَّ لِكَاشِحٍ مَقَالاً، وَإنْ أسدَى إلَيْكِ وَألْحَمَا

وَقُولاَ لَهَا: لَمْ أجْنِ ذَنْبًا فَتَعْتِبي عَلَيَّ بِحَقٍ،بَلْ عَتَبْتِ تَجَرُّمَا[٢٣]

أو يأتي التكرار؛ لتوكيد المعنى كما في قوله:

لاَ وَالّذِي بَعَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدَا بِالنُّورِ والإسلاَمِ دِينِ الْقَيِّمِ

وَبِمَا أَهَلَّ بِهِ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا عِنْدَ المَقَامِ وَرُكْنِ بَيْتِ الْمَحْرَمِ

وَالمَسْجِدِ الأَقْصى المُبَارَكِ حَوْلَهُ وَالطّورِ،حَلْفَةَ صَادِقٍ لَمْ يَأْثَمِ

مَا خُنْتُ عَهْدَكِ يَا عُثَيْمَ، وَلاَ هَفَا قَلْبِي إلَى وَصْلٍ لِغَيْرِكِ فَاعْلَمِي[٢٤]

إنَّ هذا التكرار لم يكن لفظة واحدة مكررة إنَّما حصل بتكرار القسم، وهو تكرار بالمعنى لا باللفظ، فالتكرار لا يأتي على نمط واحد فقد يأتي لفظًا مكررًا، أو جملةٍ، أو شبه جملةٍ، وكل ضروب التكرار تطبع النص بطابع قريب من لغة الحياة اليومية.

٣- الاعتراض:-

مظهر من مظاهر النزعة الشعبية، ففيه ما يشبه الاستطراد، وإذا جاء في النص الشعري؛ يغذيه بروح السردية، ويقربه من لغة التخاطب اليومية، وهو عند أبي هلال العسكري((اعتراض كلام في كلام لم يتم، ثم أن ترجع إليه فتتمه دون الإخلال))[٢٥]،والاعتراض يقع بين جزأين مترابطين من الكلام بحيث إذا حذف لا يؤثر على ترابط معنى الجزأين[٢٦]، فهو زيادة؛لغرض بلاغي، منبثًّا في شعر عمر بن أبي ربيعة؛ لخدمة فكرته في النص الشعري، فقد يأتي قسمًا واقعًا بين المبتدأ وخبره كما في قوله:

فَأَنْتِ، وَبَيْتِ اللهِ ،هَمَّي وَمُنْيَتِي وَكُ ِبْرُ مُنَانَا مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ[٢٧]

وقد يأتي الاعتراض دعاءً كما في قوله:

دَسَّتْ إِلَيَّ رَسُولاً لا تَكُنْ فَرِقًا وَاحْـــــذَرْ،وُقِيتَ،وَأَمْرُ الحَـــــازِمِ الْحَذِرُ (٢٨)

وفي قوله أيضا:

سَلَبْتِ- هَدَاكِ الله!- قَلْبِي؛فَأَنْعِمِي عَلَيهِ،وَرُدَّي إِذْ ذَهَبْتِ بِهِ قَمْرَا(٢٩)

ويبدو أنَّ أغلب الاعتراضات في شعر شاعرنا هي دعاء للمخاطب، وفي النص الاتي نرى الاعتراض دعاء على المخاطبين في قوله:

فَقُلْتُ لَهُمْ : كَيْفَ الثرَيَّا؟ هُبِلْتُمُ؛ فَقَالُوا: سَتَدْرِي مَا مَكَرْنَا وَتَعْلَمَا(٣٠)

وإن الاعتراض في شعر الشاعر جاء مكثفا في أغلب مواضعه، فهو لا يعدو أن يكون لفظة واحدة كما ذكرنا في شواهدنا.

المظهر الرابع- وصف ما يعتري المرأة من النزعات:

شغلت المرأة كلَّ ديوان الشاعر ولا تكاد قصيدة، أو مقطعة من شعره تخلو من ذكر النساء، فقد جعلهن الشاعر غايته المثلى في شعره، فهو يرى أنَّ المرأة هي الحياة ذاتها، وهي التي تكون سببا الى سعادة الرجل وشقائه، فحين تقبل عليه يصبح الكون مفعما بالأمنيات، وحين تدبر عنه يرى الحياة جحيما مهلكا، وقاعًا يبابا، وحين تفي له يشعر بنشوة الظفر، وحلاوة الحياة، فهي عنده هدف أسمى وغاية عليا، وهي معه، إن غابت وإن حضرت في حركاته وسكناته، وفي حله وترحاله، ويكون بهذا قد ولج عالما؛ فاظهر أسراره، وبث أخباره، وأزاح الستارعن كوامن ذلك العالم الناعم الذي يعبق بطيب العطر، ودفء العواطف، وتقلب المشاعر، وأهم ما يميز شعر عمر بن أبي ربيعة تلك((اللفتات الى بعض الحقائق النفسية الطريفة، أو الخافية؛ مما أضفى على شعره طابعا خاصا بين شعراء الغزل في عصره))(٣١)، فقد استطاع شاعرنا أن يتغلغل في نفسية المرأة حتى وقف على خلجاتها، وعواطفها، ومكنونات نفسها جاعلا من شعره صحيفة ناطقة بلسانها، وهو بهذا قد هجر((أساليب الشعر القديمة، ويسوي للناس مكانها أساليب جديدة تقوم على القرب والدنو منهم ومن لغتهم اليومية، كما تقوم من طرف آخر على تصوير العناصر العاطفية التي يزخر بها مجتمعهم عن طريق تصوير حبه ومشاعر المرأة المعاصرة له، وما بثَّ في هذا التصوير من حوار، كأنه استمده من قلب كل امرأة تتحدث عن فتاها، وهذا جانب في شعر عمر أعطاه قربا من النفوس في كل عصر))(٣٢).

ولم تعد المرأة ذلك اللغز المحيَّر للرجال، فقد أظهرها لنا الشاعر إنسان يفي ويخون، يغضب ويهدأ، يكره ويحب، لها ما للرجال من غرائز وحاجات قد أسدل عليها المجتمع ستارًا سميكًا، فكشفه شاعرنا بغزله الجريء، وهو يكشف لنا عن حبيبة مطواعة تخاف الفضيحة منحته كل ما في وسعها متفاعلة معه في خلوة الحب، متبادلة إياه حبًّا لا حدود له في قوله:

فَتَنَــاوَلْتُهَا، فَمَــالَتْ كَغُصــنٍ حَرَّكَتْهُ رِيُــحٌ عَلَيْــهِ فَخَــارَا
وَأذَاقَــتْ بَــعْدَ الْعِلاَجِ لَذِيــذًا كَجَنَي الْنحْلِ شَابَ صِــرْفًا عُقارَا
ثُمَّ كَانَــتْ دُونَ اللِّحَافِ لِمَشْغـُو فٍ مُعَنًّى بِــهَا صَبُوبٍ شِــعَارَا
واشْتَكَتْ شِــدَّةَ الإزَارِ مِنَ الْبَهْــ ـرِ،وألْقَتْ عَنْها لَدَيَّ الْخِمَارَا
حَبَّــذَا رَجْعُهَا إلَيْــهَا يَــدَيْهَا في يَــدَيْ دِرْعِهَا تَحُــلُّ الإزَارَا
ثُمَّ قَالَتْ وَبَانَ ضَوْءٌ مِــنَ الصُّــ ـبْحِ مُنِيرٌ لِلنَّــاظِرِينَ أنَــارَا:
يَا ابْنَ عَمِّي فَدَتْكَ نَفْسِــيَ؛ إنِّــي أتَّقِي كَاشِــحًا إذَا قَــالَ جَارَا[٣٣]

يبدو لنا أنَّ الشاعر أراد أن يجعل المجتمع مدركًا لحقيقة إنسانية لا مناصَ منها، ألا وهي أنَّ للمرأة من الغرائز ما للرجال وكأنه يدعو إلى نظرة المساواة من هذه الناحية بين الجنسين، فهو يصرح على لسان الثريا بأنها(شفت واشتفت)، فلكل منهما حاجة يسعى الى إشباعها كما في قوله:

لَمْ تَــرَ الْعَيْنُ لِلثّرَيَّا شَبِيهًا بِمَسِيلِ التِّلاَعِ لَمَّا الْتَقَيْنَا
أعْمَلَتْ طَرْفَهَا إلَيَّ وَقَالَتْ: حُبَّ بِالسَّائِرِينَ زَوْرًا إلَيْنَا
ثُمَّ قَالَتْ لأخْتِهَا قَدْ ظَلَمْنَا أنْ رَجَعْنَاهُ خَائِبًا ؛ وَاعْتَدَيْنَا
في خَلاَءٍ مِنَ الأنيسِ وَأمْنٍ فَشَفَيْنَا غَلِيلَهُ وَاشْتَفَيْنَــا
وَضَرَبْنَا الْحَدِيثَ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَأتَيْنَا مِنْ أمْرِنَا مَا اشْتَهَيْنَا
فَلَبِثْنَا بِذَاكَ عَشْــرًا تِبَاعًا فَقَضَيْنَا دُيُونَنَــا واقْتَضَيْنَا
كَانَ ذَا في مَسِيرِنَا وَرَجَعْنَا عِلمَ اللهُ مِنْهُ مَا قَدْ نَوَيْنَا[٣٤]

لا يخلو قلب رجل من ميل الى النساء، ولكن درجات هذا الميل تختلف، وما دامت المرأة تكون النصف الثاني للرجل، فهو يسعى اليها دائما في السر والعلن أمّا هي فتسعى إليه بالسر، أو تكتم سعيها فيصبح حلما دفينا لا يظهر للعيان، فأظهره شاعرنا، فإذا بالرجال والنساء يقبلون على شعره، ويتغنون به؛فصار غزله عاملا من عوامل التجديد في العصور اللاحقة؛وبذا يكون قد اتسم بشعبية لا نظير لها في عصره.

المظهر الخامس– شعبية الصورة:

قد خاض الباحثون في دراسة الصورة الشعرية على مختلف أصعدة خلقها في شتى أرجاء العالم حتى كأنهم لم يتركوا شيئا في هذا الميدان، ولهذا أغفلت تعريف الصورة عند حدودها؛ لكثرة ما قيل فيها قديما وحديثا[٣٥]؛ فاقتصر قولنا على شعبية الصورة في شعر عمر ابن ابي ربيعة، إذ يتسم غزله بالحسية، فصوره مستقاة من بيئته التي يعيش فيها، ولم نجد في صوره

شيئا من الخيال المتميز، وإذا أراد أن يخلق صورةً متخيلةً، فيأتي بها من واقعه على سبيل عرض حكاية للقاء مع صاحبته، أو مغامرة يقوم بها للوصول إلى إحدى معشوقاته، فخياله منصب على إبداع الحكاية التي يصور بها حاله، وما يعترض طريقه من العوائق والعقبات التي تجعل مغامراته حافلة بالجرأة والمجازفة من أجل الوصول إلى غايته، وغايته في شعره المرأة، فمن أجلها تجشم عناء الطريق ومخاطره مستعدا لبذل حياته في سبيل تلك الغاية غير مبال بتقاليد المجتمع الصارمة، وأعرافه القاسية، ويقدم الشاعر لنا صورة نابعة من تجربته الذاتية بلغة سهلة يدركها عامة المجتمع((فجوهر الشعر ينبع من التجربة الروحية التي تمر بنفس الشاعر، ولا بأس أن تكتب هذه التجربة في لغتها الحقيقية، أو قل في لغة بسيطة كتلك التي يتفاهم بها أفراد الشعب))[٣٦] ،وهذا ما فعله شاعرنا حين قدم لنا صورة حسية بلغة جلية، وأسلوب واضح، وصوره تجسيدا لحالته وحالة صويحباته، كذلك يأتي بصور لبيئته، وما يحيط به من مظاهر طبيعية، وإليك هذه الصورة الليلية لإحدى مغامراته التي يصور لنا فيها فتاة قد (أحيطت حولها الحجرُ)، وقد قصدها متشحًا سيفه غير مبال بحراسها الذين غلبهم النوم، وقد شبههم بالموتى فاقتحم عليها مهدها، فوجدها مستترة بالحرير مشبها إياها بالرئم في قوله:

ضَرَبُوا حُمْرَ الْقِبَـابِ لَهَا وَأَحِيطَتْ حَوْلَها الْحُـجَرُ

فَطَرَقْـتُ الْحَيَّ مُكْتَتِمًا وَمَعِي عَضْبٌ بِـهِ أَثَرُ

فَإِذَا رِيـمٌ عَلَى مُهُدٍ في حِجَالِ الْخَزِّ مُسْـتَتِرُ

بَـادِنٌ تَـجْلُو مُفَلَّجَةً عَذْبَةً غُرًّا لَها أَشَـرُ

حَوْلهُ الأَحْـرَاسُ تَرْقُبُهُ نَوَّمٌ مِنْ طُولِ مَا سَهِرُوا

أَشْـبَهُوا الْقَتْلى،وَمَا قُتِلُوا ذَاكَ إِلاّ أَنَّهُمْ سَمَـرُوا

فَـدَعَتْ بِالْوَيْلِ ثُمَّ دَعَتْ حِـينَ أَدْنَانِي لَها النَّظَرُ

وَدَعَتْ حَوْرَاءَ آنِـسَةً حُرَّةً مِنْ شَـانِهَا الْخَفَرُ

ثُمَّ قَالَـتْ لِلّتي مَعَهَا : وَيْحَ نَفْسِي قَدْ أَتَى عُمَرُ[٣٧]

نلحظ أنَّ ما جاء به من التشبيهات هو من صميم بيئته بعيدًا كل البعد عن الخيال.وقد حشد الشاعر عددا من التشبيهات في بيت واحد لمعشوقته، فقد شبهها بالبيضة والمهاة والقمر، فهي آنسة، كثيرة الدَّلّ، ممتلئة الخلق في قوله:

بِبَيْضَةٍ كَمَهَاةِ الرَّمْلِ، آنِسَةٍ، مِفْتَانَـةِ الـدَّلِّ، رَيَّـا الْخَلْقِ،كَالْقَمَرِ[٣٨]

ولم يكن شاعرنا موفقا في كل صور المرأة إنَّما نجد عنده صورًا مبتذلة كما في قوله:

لَوْ دَبَّ ذَرٌّ رُوَيْدًا فَوْقَ قَرْقَرِها لأَثَّرَ الذرُّ فَوْقَ الثَّوبِ فِي الْبَشَرِ[٣٩]

فهذه الصورة من الصور التي فقدت جماليتها؛لأنَّ الشاعر صور لنا تلك المرأة، وكأنها مصابة بمرض جلدي، فما معنى أنَّ النمل إذا سار على ثوبها أثَّر ببشرة جلدها، وصحيح أنَّ الشاعر أراد بذلك المبالغة في أظهار رقتها، ولكنها مبالغة مذمومة، ويكرر هذه الصورة بقوله:

لَوْ دَبَّ ذَرٌّ فَوْق ضَاحِي جِلْدِهَا لأَبَانَ مِنْ آثَارِهِنَّ حُـدُورٌ

غَرَّاءُ،وَاضِحَةُ الْجَبِين، كأَنَّهـَا قَمَرٌ بَدَا لِلنَّاظِرِينَ مُنِيـرُ[٤٠]

فالشاعر حاول أن يحسن قليلاً من صورته بتشبيهه صاحبته بالقمر.
ومن المبالغات المبتذله في صوره قوله:
تَكَادُ مِنْ ثِقَلِ الأرْدَافِ إنْ نَهَضَتْ إلى الصَّلاَةِ بُعَيْدَ الْبُسر تَنْبَتِرُ[٤١]

فالمستقبح في هذه الصورة يأتي من أمرين: أولهما، تقييد الشاعر صورة تلك المرأة بالصلاة، وثانيهما، البتر فهو ينعتها بثقل الارداف، وضمور الخصر، ولكن بالغ حين قال: أنَّها حين تقوم تنبتر، ولا أدري ما الذي يستسيغه المتلقي من هذه المبالغة ؟ ولربما كان المجتمع في عصر الشاعر يتذوق مثل هذه المبالغات في رسم صورة المرأة، ومهما يكن من أمر فإنَّ المبالغات المقبولة تبقى خالدة على مر العصور والأجيال، ويلح الشاعر على هذا المعنى بقوله:
وَيَكَادُ الْعَجْزُ إنْ نَهَضَـتْ بَـعْدَ طُولِ الْبَهْرِ يَنْبَتِـرُ[٤٢]

ويكرر الشاعر هذ المعنى في بيتين متتالين:
وَإِذْ هِيَ حَوْرَاءُ رُعْبُوبَـةٌ ثَقَالٌ مَتَى مَا تَقُمْ تَنْبَتِرْ

تَكَـادُ رَوَادِفُهَا إنْ نَـأَتْ إلَى حَاجَةٍ مَوْهِنًا تَنْبَتِرْ [٤٣]

ويبدو أن هذه المبالغات أراد بها الشاعر شعبية النص الشعري وطرافته، فلا يمكن لشاعر مثل ابن أبي ربيعة أن يعجز عن الإتيان بصور جميلة ولكنة قصد عدداً من الصور التي ذكرناها قصدا؛ لإرضاء ذوق مجتمعه.
كشف لنا عمر بن أبي ربيعة في صوره جانبًا مهمًا من حياة المجتمع المكي الذي أترف، وأثرى في ظل بني أمية كما أبان لنا أنَّ الشعر المغنى قد ازدهر في ذلك المجتمع الذي كان محافظا في عصر صدر الإسلام.

المظهر السادس- الجنوح نحو موسيقى الأوزان الخفيفة والمجزوءة:

إنَّ الثروات التي أغدقها الأمويون على أهل مكة والمدينة جعلت المجتمع يميل إلى التحضر والاستقرار، ثم الترف الذي بدل أذواق الناس، فصاروا يميلون إلى الرقة في حياتهم اليومية، فقد ابتعد الناس عن الكثير من عادات البادية، ولا سيما في الحاضرتين اللتين أصبحتا عامل جذب للمغنين ؛ألفى الشعراء أنفسهم إزاء حالة جديدة لا بد أن يستجيبوا لها لما فيها من تطورات، فلم يعد ذلك الشعر المجلجل صالحا للغناء، فاخذوا يرققون شعرهم بنظمهم على الأوزان الخفيفة والمجزوءة؛ لتلائم الغناء على الآلات الموسيقية التي تتطلب إيقاعات متحركة تتسم بالخفة، وسرعة تناوب الوحدات النغمية في أجزاء زمنية متقاربة، فالإيقاع((هو التناوب الزمني المنتظم للظواهر المتراكبة، وهو الخاصية المميزة للقول الشعري، والمبدأ المنتظم للغته))[٤٤]، فألاوزان السريعة تلقى استجابة بين أوساط الناس على مختلف مستوياتهم؛لسهولة الترنم بها على الالسنة؛ لأنَّها((أكثر شيوعا وملائمة لعامة الناس واهتمامات الطبقات الشعبية))[٤٥]، وهذا ما وجدناه في شعر عمر بن أبي ربيعة الذي فاق اقرانه بتجديد فنه الذي جعله أقرب إلى افهام عامة المجتمع من حيث لغته، وألفاظه، وأوزانه، فقد أخضع((ملكاته لفن الغناء الذي عاصره، إذ يستخدم الاوزان الخفيفة والمجزوءة، حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدونه من الحان وايقاعات))[٤٦]شغف المجتمع المكي بها، ومن هذه الأوزان مجزوء الرمل كما في قوله:

مَرَّ بِي سِــرْبُ ظِبَاءٍ رَائِــحَاتٍ مِنْ قُبَاءِ

زُمَــرًا نَحْوَ الْمُصَلّى مُسْرِعَاتٍ في خَــلاَءِ

فَتَعَرَّضْتُ وَالْقَيْــــ ـتُ جَلاَبِيبَ الْحَيَـاءِ

وَقَدِيــمًا كَانَ عَهْدِي، وَفُتُونِي بِالنِّسَــاءِ[٤٧]

أسقط الشاعر تفعيله واحدة من كل شطر أي حذف ثلث زمن البيت الشعري بدون الإخلال بعذوبته المتأتية من تفعيلة(فاعلاتن)التي تمنح المنشد مساحة صوتية؛ لتنغيم البيت، وملائمته لشعبية الغناء.

ومن الاوزان الراقصة الهزج، وهو مأخوذ من حركة الابل في الصحراء، فأخذه عمر ابن أبي ربيعة؛لسرعة إيقاعه؛فنظم عليه غزلاً؛ليغنى في المحافل والمجالس كما في قوله:

مُنِعْتُ النَّوْمَ بِالسُّــهُدِ مِنَ الْعَبَرَاتِ وَالْكَمَــدِ

لِحُبٍّ دَاخِــلٍ فِي الْجَوْ فِ ذِي قَرْحٍ عَلَى كَبِدِي

تَـرَاءَتْ لِي لِتَقْتُلَنِــي فَصَادَتْنِي وَلَمْ أَصِــدِ

بِذِي أُشُرٍ شَـتِيتِ النَّبْــــتِ صَافِي اللَّوْنِ كَالْبَرَدِ[٤٨]

يمتاز هذا الوزن بتكرار النغمة نفسها اربع مرات(مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن) في البيت الواحد؛فيمنح الغناء تعاقبًا نغميًا متماثلا.

ونظم شاعرنا على وزن المديد؛لما فيه من تنغيم وتطريب وشجى كما في قوله:

رَثَّ حَبْلُ الْوَصْلِ وَانْصَرَمَا مِنْ حَبِيبٍ هَاجَ لِي سَقَمَا

كِدْتُ أَقْضِي إِذْ رَأَيْتُ لَهُ مَنْزِلاً بِالخَيْفِ قَدْ طَسَمَا

لاَ تَــرَى إلاّ الرَّمَادَ بِهِ، وَمَغَانِـي الْقِدْرِ،وَالْحُمَمَا

وَمَخَطّ النُّؤْيِ مَرَّ بِــــهِ مَدْفَعٌ لِلسَّـيْلِ فَانْهَدَمَا[٤٩]

يمنح هذا الوزن المغني تلوينا في نغماته؛وذلك بسبب مد التفعيلة الوسطى، وتغير التفعيلة الثالثة، فهذا التلوين الصوتي يثير شجن المتلقي؛لتلون تفعيلاته التي تمنح تلونا في الترنم، وتموجا في ترجيع الصوت؛حتى يبدو ما نظم عليه من الشعر أغاني عذبة تشد أسماع الناس إليها، وتثير لواعجهم، وأحزانهم، وذكرياتهم؛ولذا فقد أكثر شعراء الغزل من النظم عليه؛لانه يصلح لهذا الغرض أكثر من سائر الأغراض الأخرى.

إنَّ هذه الأوزان الخفيفة والسريعة والمجزوءة صارت سمة من سمات النزعة الشعبية ؛لسرعة انتشار قصائدها ومقطعاتها بين أوساط المجتمع على مختلف مستوياتهم وثقافاتهم، فضلا عن كونها تتطلب لغة تلائمها بالرشاقة والخفة، فهي تتيح((التعبير عن إحساس يتوخى أن يكون حرًّا))[٥٠].

فالإنسان يبحث عن الحرية في التعبير عن ذاته وما تعتري نفسه من اضطرابات إجتماعية، أو عاطفية طامحًا دائمًا إلى تكسير القيود المفروضة عليه من قبل المجتمع؛ولذا فإن شعبية عمر بين أبي ربيعة قد لقت تجاوبا كبيرا من المجتمع؛لما فيها من خروج عن تقاليد موروثة.

الخاتمة

يتفرد عمر بن أبي ربيعة بشعره متميزًا من شعراء عصره، فديوانه يضم بين دفتيه شعرًا جديدًا لم تألفه العرب من قبلُ، إذ يعد بحق من رواد الشعر القصصي في ذلك الوقت، فكل شعره قصص تفصح لنا عن حياته، وطريقة عيشه، وأخباره، ومغامراته العاطفية، وذكرياته مع صويحباته بأسلوب قصصي أخّاذ، وإذا كان امرؤ القيس وغيره من شعراء قبل الإسلام يجعلون لصاحباتهم مكانًا في قصائدهم، فانَّ شاعرنا جعل كل قصائده ومقطعاته قصصا تروي لنا مغامرات الشاعر، وخوضه حنادس الليل ومخاطر الطريق من أجل هذه الحبيبة، أو تلك المعشوقة غير عابه بما يلاقيه من أهوال الطريق، ومخاطره، وما يحل به من أهل تلك النساء اللائي جازف من أجل الوصول إلى مخادعهن؛للظفر بما يطمح إليه من مسامرتهن، والاستئناس بهن.

وصاغ كلَّ ذلك بلغة سهلة، ومعان قريبة، وألفاظ عذبة، وأوزان انمازت بخفتها وسرعتها؛لتكون أكثر ملائمة لبيئة الشاعر الجديدة؛وبهذا يكون شاعرنا قد نحا بشعره منحى الشعبية المتيسرة بعيدًا عن الإيغال في معجمية الكلمة، ولحن العامية فضلا عن حسية افكار الشاعر وصوره المستقاة من بيئته، وهذا مظهر آخر من مظاهر شعبية هذا الشعر، فكان مسلكه هذا فتحا منح شعرنا العربي روحًا جديدة ضمنت له الخلود على مرِّ العصور، وذلك لمواكبة تطورات الحياة الاجتماعية في كل عصر، ولانغالي إذ نقول: إنَّ شاعرنا قد أحدث ثورة في ابتداع شعر جديد متحرر من الكثير من تقاليد القصيدة العربية القديمة.

النتائج

بعد دراستنا لمظاهر النزعة الشعبية في شعر عمر بن أبي ربيعة توصلنا الى نتائج تعد خلاصة لهذه الدراسة نجمل أهمها في الآتي:

١- أثبت البحث أنَّ شاعرنا ذو عقلية نيرة دعت إلى المساواة بين المرأة والرجل إذ ساوى في شعره بين نزعاتهما، وحاجاتهما النفسية.

٢- إنَّ من يؤاخذ شاعرنا على خلو قصصه من مقومات قصة النثر مخطئ؛وذلك لسبب بسيط ألا وهو أنَّ شاعرنا سابق على تقنين فن قصة النثر ومقوماتها، فهو متاثر بالقصص الشعبي في عصره الذي لا يعرف مقومات القصة الحديثة.

٣- يعد عمر بن أبي ربيعة من الشعراء الاوائل اللذين نظموا قصائد كاملة في الشعر القصصي، وكأنَّه وضع خطة لمسار قصته الشعرية قبل نظمها.

٤- تكشف لنا كثرة حبيبات الشاعر حقيقة قد تخفى على الكثير، فقد تمنحه هذه الكثرة مساحة اوسع؛لنظم عدد كبير من القصص الشعري بشخصيات متعددة، ولم يُردْ لشعره أن يكون وقفا على امرأة واحدة.

٥- منح الأسلوب القصصي قصائد الشاعر ومقطعاته ترابطًا في البنية، ووحدة في الموضوع.

٦- إنَّ لغة الشاعر المتسمة بسهولة الأسلوب، وقرب المعاني، ووضوح الألفاظ، وخفة الأوزان منحت شعر بن أبي ربيعة طابعًا شعبيًا.

٧- انماز شعره بالسردية المتمثلة بالاعتراض، والتكرار، والدراما القصصية.

٨- من يقرأ شعر عمر بن أبي ربيعة يجده حسيًا بسيط الخيال، فصوره وأفكاره مستمدة من واقع الحياة اليومية.

الهوامش:

١- ينظر تاريخ الأدب العربي، ادب صدر الاسلام/.٥٠

٢- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني امية/.١٠٤

٣- التطور والتجديد في الشعر الاموي/.٢٤٢

٤- م.ن/.٢٤٣

٥- شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/٤٦٠-.٤٦١

٦- م.ن/١٥٩-١٦٠

٧- م.ن/٢٤٩-.٢٥٠

٨- ينظر: تاريخ الادب العربي،العصر الجاهلي/.٢١٩

٩- ينظر: الشعر كيف نفهمه ونتذوقه/.١٢٥

١٠- بنية اللغة الشعرية/.٣٢

١١- شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/.١٢٣

١٢- م.ن/.١١٦

١٣- م.ن/.١٥٨

١٤- م.ن/.٢٨٥

١٥- لغة الشعر بين جيلين/.٧

١٦-حول الادب في العصر السلجوقي/.٢٤٤

١٧- تاريخ الادب العربي، العصر الاسلامي/.٣٥٣

١٨- شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/١٥٠-.١٥١

١٩- م.ن/٢٧٦-.٢٧٧

٢٠- المثل السائر: ق٣/.٣

٢١- البناء اللفظي في لزوميات المعري/.٩٥

٢٢- شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/.١٨٢

٢٣- م.ن/٢١٢-.٢١٣

٢٤- م.ن/.٢٣٠

٢٥-كتاب الصناعتين/.٤١٠

٢٦- ينظر: المثل السائر/.٤٠

٢٧- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة/.٢٠٣

٢٨- م.ن/.١١٣

٢٩- م.ن/.١٠٩

٣٠- م.ن/.٤٦٢

٣١- في الشعر الإسلامي والاموي/.٢٧١

٣٢- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني امية/٢٧٢-.٢٧٣

٣٣- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة/١٤٠-.١٤١

٣٤- م.ن/٣٠٤-.٣٠٥

٣٥- ينظر: أمالي المرتضى:١/٢٢،إعجاز القران/١١٩، الصورة في الشعر العربي حتى اخر القرن الثاني الهجري/١٥،٢٥،الصورة في التشكيل الشعري/١٦٧،الصورة الادبية/٢١٧،الصورة الفنية معيارا نقديا/١٥٤،أُصول النقد الادبي/٢٤٢-٢٤٣،فن الشعر /٢٣٨،الادب المقارن/٣٨٢-٣٨٢.

٣٦- دراسات في الأدب العربي المعاصر/.١٩٨

٣٧- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة/١٦٠-١٦١.

٣٨- م.ن/١١٦.

٣٩- م.ن/١١٧.

٤٠- م.ن/١٢٥.

٤١- م.ن/١١٩.

٤٢- م.ن/١٦٠.

٤٣- م.ن/١٧٦.

٤٤- نظرية البنائية في النقد الادبي/.٧٨

٤٥- الشعر العباسي، التيار الشعبي/.١٧٧

٤٦- تاريخ الأدب العربي، العصر الاسلامي/.٣٥٠

٤٧- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة/.٣٧٦

٤٨- م.ن/.٣٩٢

٤٩- م.ن/.٤٠٠

٥٠- الظاهرة الأدبية في صدر الأسلام والدولة الأموية/٤٢٥.

المصادر والمراجع

١- الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، ط٩، دار العودة، بيروت ١٩٨١م.

٢- أُصول النقد الادبي،أحمد الشايب،ط٧،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،١٩٦٤م.

٣- إعجاز القران، الباقلاني، تحقيق:أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة،(د.ت).

٤- أمالي المرتضى: الشريف المرتضى، تحقيق: أحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١،دار إحياء الكتب،١٩٥٤م.

٥- البناء اللفظي في لزوميات المعري، دراسة تحليلية بلاغية، د.مصطفى السعدني،مطبعة شركة الات ولوازم المكاتب،الناشر :منشأة المعارف،الاسكندرية، مصر ،(د.ت).

٦- بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة محمد الولي، ومحمد العمري، ط١، دار توبقال للنشر، المغرب،١٩٨٦م.

٧- تاريخ الادب العربي، أدب صدر الإسلام، نقد وتحليل، السيد جعفر باقر الحسيني، ط١، دار الاعتصام للطباعة والنشر، المطبعة: مهر، (د.م)،(د.ت).

٨- تاريخ الادب العربي ،العصر الاسلامي، د.شوقي ضيف، ط١٠، دار المعارف، مصر، ١٩٨٦م.

٩- تاريخ الادب العربي العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، مصر،(د.ت).

١٠- التطور والتجديد في الشعر الاموي، د.شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، مصر،(د.ت).

١١- حول الادب في العصر السلجوقي، محمد التونجي، ط١، بنغازي، ١٩٧٤م.

١٢- دراسات في الأدب العربي المعاصر، د.شوقي ضيف، دار المعارف، مصر،١٩٦٩م.

١٣- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة السعادة، القاهرة،١٩٦٠م.
١٤-الشعر العباسي، التيار الشعبي، د.سعد اسماعيل شلبي، دار الغريب للطباعة، القاهرة،(د.ت).
١٥- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أُمية، د.شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، مصر،١٩٧٩م.
١٦- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزا بيث درو، مكتبة ضيمنة، بيروت،١٩٦١م.
١٧- الصورة الادبية، مصطفى ناصف، ط١، مصر ١٩٥٨م.
١٨- الصورة الفنية، معيارا نقديا، د.عبد الاله الصائغ، بغداد،١٩٨٧م.
١٩- الصورة في التشكيل الشعري، د.سمير علي الدليمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،١٩٩٠م.
٢٠- الصورة في الشعر العربي حتى اخر القرن الثاني الهجري، علي البطل، دار الاندلس،(د.ت).
٢١- الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والدولة الاموية، إحسان سركيس، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان،١٩٨١م.
٢٢- فن الشعر، د.إحسان عباس، دار بيروت، بيروت،١٩٥٥م.
٢٣- في الشعر الإسلامي والاموي، د.عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،١٩٧٥م.
٢٤- كتاب الصناعتين، أبوهلال العسكري،ط١،مطبعة محمود بك، الاستانة،١٣٢٠هـ.
٢٥- لغة الشعر بين جيلين، إبراهيم السامرائي، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٨٠م.
٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الاثير، تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٣٩م، وتحقيق:د.أحمد الحوفي، د.بدوي طبانة، ط١،مطبعة الرسالة، مصر،١٣٨١هـ/١٩٦٢م.
٢٧- نظرية البنائية، د.صلاح فضل، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.